

المرجعيات الثقافية وبناء المتخيل السردي قراءة في رواية (أنا وحايم للحبيب السائح)  
**The Cultural References and Building the Imaginary  
 Narrative : Reading the Novel of « me and Hayim » by  
 Lahbib Sayeh.**

\* نور الهدى غرابية<sup>1</sup> / سليم كرام<sup>2</sup>

Norelhouda Gheraba<sup>1</sup>, Salim kiram<sup>2</sup>

مخبر نظريات القراءة و مناهجها، جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)

Mohamed Khider University of Biskra (Algeria)

norelhouda.gheraba@univ-biskra.dz

|                         |                          |                           |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|
| تاريخ النشر: 2021/03/30 | تاريخ القبول: 2020/11/18 | تاريخ الإرسال: 2020/04/20 |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|

ملخص البحث

تملك الرواية هوية ثقافية تنبثق من مرجعيات معرفية متعددة، وأفكار ورؤى يجسدها الروائي في عالم في يتداخل فيه الواقعي والمرجعي بالتخييلي، وتعد رواية "أنا وحايم" للحبيب السائح من النماذج الروائية التي انفتحت على العديد من المرجعيات والأنساق المعرفية المستقاة من التاريخ والمجتمع والدين، كونها عالجت قضايا وطنية عميقة سعى من خلالها الكاتب إلى التأكيد على الهوية الوطنية في ظل الحرب والاستعمار، عبر رسالة إنسانية سامية ألح فيها على ضرورة التسامح والتعايش بين أبناء الوطن بكل أطيافهم ومعتقداتهم. فسلط الضوء على حقبة تاريخية مهمة في تاريخ الجزائر. عن طريق السرد السرداتي الذي عكس عمق تجربته وجماليتها من خلال القدرة على احتواء الأحداث والوقائع والذوات المتصارعة. ونحاول في هذه الدراسة استظهار أهم المراكز المرجعية التي اشتغل عليها الروائي وأساليب توظيفها. من هنا نؤكد على أن استثمار هذه الطاقات المرجعية كان لإعادة بعث الماضي التليد.

الكلمات المفتاح:، مرجعية، ثقافة، متخيل، سرد، تاريخ، هوية.

**Abstract:**

The novel has a cultural identity that emerges from many cognitive references embodied by the novelist in a world of art where the realistic, referential and imaginary overlap. The novel "Me and Hayim" by Lahbib Sayeh was opened to many references and cognitive contexts. It tackled deep national issues through which the writer sought to assert national identity in the midst of war and colonialism. He emphasized the need for

نور الهدى غرابية. norelhouda.gheraba@univ-biskra.dz

tolerance and coexistence among the people of the homeland with all their sects and beliefs. He also highlighted an important historical era in the history of the Algerians through the self-narrative, which reflected the depth of his experience and its beauty in being able to contain events and conflicting personalities in the study, we try to show the significant references that were used and the methods of employing them by the novelist.

**Keywords:** Reference, Culture, Imaginary, Narrative, History, Identity



### تمهيد

المتتبع لمسار تطور الكتابة الروائية في الجزائر من نشأتها إلى تاريخ اليوم يكتشف أنها مرت بالعديد من المحطات الإبداعية التي ساهمت في نضجها، فاكتمت بذلك مكانة هامة، ما جعلها تستقطب أنظار النقاد والدارسين، وذلك لكونها حقلا ثريا تشابكت فيه قضايا الماضي والحاضر والمستقبل، وبما أن الرواية الصورة المصغرة عن الواقع نجد أن الروائي الجزائري استحضر في نصوصه الصور والرموز المعبرة عن الخصوصية الثقافية وفجر أسئلة عديدة انفتحت فيها على الثقافة والتاريخ والسياسة وخطابات الهوية...

والحبيب السائح من هؤلاء المبدعين الذين خلفوا إنتاجا روائيا متنوعا، حيث اشتملت تجربته الروائية على العديد من المعارف المتعلقة بالفكر والتاريخ وقضايا الواقع، فطرق العديد من المواضيع التي تتعلق بالوطن؛ فتحدث عن (الثورة التحريرية، مرحلة ما بعد الاستقلال والضبابية التي انتابتها، الاضطرابات السياسية، وأحداث العشرية السوداء، وهذا دون أن ينسى إشارات فقد كان مولعا بخصوصية المكان (وهران، سعيدة، الصحراء) فامتازت تجربته بالعمق والوعي والانتصار لصوت الضمير الجزائري.

من خلال هذه الدراسة سنقوم بقراءة آخر أعماله المعنونة بـ {أنا وحايم}، التي سعى من خلالها إلى طرح قضايا وطنية عميقة لها أثر بالغ في تاريخ الجزائر زمن الاحتلال الفرنسي، فحدثنا عن الحرب وجرائم الاستعمار، ومحاوله الذات الجزائرية التأكيد على هويتها رغم أجواء المعاناة والألم.

وانطلاقا من هذه المعطيات ستحاول دراستنا استظهار المحطات التاريخية التي استدعاها الروائي كذلك وإبراز تمثالات الهوية ومن ثم الإجابة عن جملة من الأسئلة أبرزها:

- ما المقصود بالمرجعيات الثقافية؟ كيف يبني النص الروائي مرجعيته؟

- استحضار المرجعيات الثقافية هليتم فيه تبني ما تحمله من قيم ومقاصد؟ أم هي العالم الذي ينهل منه الروائي مواضيعه الروائية؟
- ما العلاقة التي تربط التاريخ بالرواية؟ ولماذا يلجأ الروائي إليه ويعيد صياغته وفق ما يقتضيه نصه؟

### أولا: تحديد المصطلحات: مقارنة اصطلاحية:

ينفتح مصطلح المرجع والمرجعية على الشساعة المعرفية، فهما لا يردان على صورة دلالية واحدة بل هما متعددا للدلالة، لأنهما ينتميان إلى خطابات معرفية متنوعة.

#### 1- المرجع:

استعمل هذا المصطلح في اللغة الفرنسية منتصف القرن العشرين مأخوذا من اللغة الإنجليزية، وقد اختلفت فيه التنظيرات وتعددت التصورات حول مفهوم المرجع، غير أن أقرب الحقول المعرفية التي يمكن استغلالها في مجال الدراسة السردية، هي حقول المباحث اللسانية التي ترى أن دراسة المرجع تعني ما "يرجع إليه اللفظ وتؤول إليه القضية"<sup>1</sup>، فعالم الرواية يبني ويتشكل دلاليا من خلال ما يحيل عليه الواقع المرجعي المعيش. بناءً على ذلك فإن مصطلح المرجع مكثف دلاليا يتشكل من خلال السياق الخارجي، ولا يكتمل إلا بالفاعل معه.

وورد عند رشيد بن مالك أن المرجع "من مواضيع العالم الحقيقي التي تشير إليها كلمات اللغة الحية. تبدو كلمة موضوع غير كافية ذلك أن المرجع يغطي الأوصاف والأفعال، والأحداث الحقيقية فضلا عن ذلك يبدو العالم الحقيقي محصورا، لأن المرجع يشتمل أيضا على العالم الخيالي"<sup>2</sup>. من خلال تفحص كل المقاربات التي توطر مفهوم المرجع، نلاحظ أنه يمثل "هوية النص في بُعديه الداخلي والخارجي"<sup>3</sup>، فالقارئ عندما يطلع على الخطاب الروائي يكون في رصيده مجموعة من المعارف القبليّة المكتسبة، وسلطة المرجع تكون كل مرة خارج النص، لكنه يحاول إسقاطها على ما يقرأ ويثبتها على النص، من هنا تتضح له طبيعة الموضوع المتناول.

#### 2- المرجعية

مصدر اللفظ من اللغة الإنجليزية (reference)، وتعني "الوظيفة التي بواسطتها تحيل سمة ما على موضوع للعالم خارجا عن حقل السيميائيات، حقيقيا أو خياليا"<sup>4</sup>. وتبعاً لهذا التصور فإن مرجعية

النص الروائي تقوم على علاقة المبدع وكيفية رؤيته للعالم من حوله، فهو يحاول أن يعطينا تصورا عن هذا الواقع الذي يفجر أسئلته، وفق عمل تخيلي يمتزج فيه الواقعي بالفي. كما تُعرف على أنها "العالم الذي يحيل عليه ملفوظ لغوي، علامة منفردة كانت أم تعبير مركبا، ويكون ذلك العالم إما واقعا موجودا حاضرا، وإما متخيلا لا يطابق أي واقع خارج التعبير اللغوي. وهذا يستلزم بالضرورة من يدرك ذلك العالم أو يتمثله، ثم ينتج الدلالات التي يمكن أن يعبر عنها العالم المرجعي المعروض في التعبير"<sup>5</sup>، وهنا يظهر جليا لنا أن مرجعية النص الروائي عبارة عن عالم في وفكري، مشحون بمحمولات دلالية وجمالية، يكون القارئ مجبرا على كشفها وفك شفرتها.

والرواية التي تعتمد المرجعيات قد تأخذ مرجعيات من الواقع المعيش، أو من التراث والفلكلور والتاريخ أو من الفكر والثقافة والمعارف أو من الفكر الإيديولوجي، أو في سياقات اللغة وجمالياتها، وهذه المرجعيات وغيرها ذات علاقة ليس بالنص وحده، بل بكاتب النص وقارئه أيضا<sup>6</sup>. فقارئ الرواية يكتشف أنه أمام مجموعة من القضايا المطروحة لأن النص الروائي يشكل "الحقل الذي يجب أن تنفجر فيه أسئلة الراهن أشكالا جمالية مقلقة، تقدم الجديد وتبحث عن الجديد، وعن المسكوت عنه، وبذلك تُقدم عبر النصّ الروائي، البنية الثقافية- الاجتماعية في حركتها، فتصدر قضاياها، ورؤاها، وطموحاتها وآمالها"<sup>7</sup>. تبعا لهذا التصور فإن مرجعية النصّ الروائي تُبنى من خلال علاقة المبدع بالعالم؛ فهو يحاول أن يعطينا تصورا عن هذا الواقع ينسجه وفق عالم نصي تخيلي، مما يجعله وسيطا "بين الإنسان والعالم، وبين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان ونفسه، والوساطة بين الإنسان والعالم هي ما يصطلح عليه بالمرجعية"<sup>8</sup>.

### 3- الثقافة

حاول الكثير من العلماء والمفكرين الوصول إلى معنى جامع ودقيق لمفهوم الثقافة، لكن الظاهر يدل على أن هذا المصطلح لا يمكن حصره في مفهوم واحد، لكون الثقافة تفتح على العديد من المجالات التي تؤطرها. سنورد في الآتي أهم التعاريف التي حاولت الإحاطة بالجوانب المتعددة لمفهومها.

فبفعل ما تشهده مسألة الثقافة من تجدد مستمر عبر مراحل نمو تفكير البشر، بفعل التطورات التي يمر بها المجتمع وكذا التمازج الثقافي الذي يعود لأسباب كثيرة كالبعثات العلمية والاستعمار. ظهرت أواخر القرن الثالث عشر منحدره من *cultura* اللاتينية، والتي تعني "العناية الموكلة للحقل والماشية، وذلك للإشارة إلى قسمة الأرض المحروثة"<sup>9</sup>، في هذا القرن ارتبط مفهومها بالحقل والماشية وظلت كذلك في القرون التي تلت هذا القرن. ومن أقدم التعريفات التي حاولت الإحاطة بالجوانب المتعددة لها ما جاء به الأنثروبولوجي البريطاني إدوارد تايلور (Edward Burnett Tylor) أواخر القرن التاسع عشر في كتابه المعنون بـ: "الثقافة البدائية"؛ وقد ذهب فيه إلى أن الثقافة هي "ذلك الكل المركب الذي يضم المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق، والقانون والعرف وكل المقدسات والعادات الأخرى، التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع معين، أو منتمي إلى جماعة معينة"<sup>10</sup>، والواضح من التعريف ارتباط الثقافة بالعناصر والمكونات والمعارف التي يكتسبها الفرد من محيطه الاجتماعي، فهي تتعلق بتفكير وسلوك الأفراد. كما تعرف على أنها "عبارة عن عالم يصنعه الإنسان، وتمكنه من صنعة القدرة على الترميز، على إلحاق معان غير مباشرة تجريدية بالأشياء والأحداث"<sup>11</sup>. فالمتقن هو من يصنع تاريخ أمته ويساهم في بناء حاضرها ويقوي صلتها بماضيها.

#### ثانيا: تقديم

منذ صدور رواية "أنا وحاييم" شأها الكثير من الجدل النقدي بتباين ردود الرؤى النقدية حولها، وذلك لأنها تمثل عينة من الروايات التي عاجلت علاقة الأنا والآخر، من زاوية مختلفة عما تم تناوله سابقا، فهي تؤسس لرؤية جديدة قوامها التمرد على ثقافة التعصب الديني، وصناعة التواصل الإنساني عبر تقبل التنوع العرقي الذي يتشكل منه المجتمع الجزائري، ونبذ الاستعمار بكل أشكاله والتمسك بالهوية.

فالرواية تطرح موضوعا شائكا، وتنطلق أحداثها من استرجاع ذكريات الحرب المؤلمة التي ارتسمت بالذاكرة، لكن هذه الحرب ولدت صداقة شكّلت أسمى مظاهر التعايش السلمي والتسامح الديني رغم الاختلاف العرقي. جمعت بين اثنين هما "أرسلان حنيفي ابن القايد" من عائلة جزائرية و"حاييم بن ميمون اليهودي" منذ الطفولة، امتازت تلك العلاقة بينها بالشقاوة والتمرد خاصة على ألفونسو باتيست. وتبدأ الرواية باسترجاع أرسلان لشريط ذكرياته الجميلة مع صديقه حاييم

في مدينة نَشَأَتْهَا سعيدة التي زولاً فيها الدراسة الابتدائية فالثانوية. ما جعل السرد الروائي يتمتع بالسردي التاريخي، الأمر الذي جعل تلك العلاقة تتميز "بشفافية خاصة، حيث يبدو التاريخ "الواقعي" شفافاً حول لعبة السرد"<sup>12</sup>. فقد مكن الهيكل السردي الواضح المعالم واللغة المتوازنة والسلسلة من التأثير على القارئ وجذبه لبحث أكثر في تفاصيل الرواية. فبالرغم من الاختلاف العرقي والديني بينهما لم يمنع ذلك من التعايش السلمي والصدقة الحقيقية، فكانا بمثابة عائلة واحدة، نقل لنا التجارب التي مررنا بها معاً وصولاً إلى الدراسة الجامعية، التي جعلت الميولات تُحدث الاختلاف فقد اختار الأول دراسة الفلسفة والثاني الصيدلة.

تصور الرواية ما تعرض له الجزائريون إبان الاحتلال الفرنسي من جرائم وحشية وتمييز عنصري، حيث كان يطلق عليهم "الأنديجان"، كما تؤرخ للمقاومة ضد الاحتلال وما أبداه الشعب من صمود وكفاح لاسترجاع الحرية والسيادة الوطنية. وبعد التحاق أرسلان بصفوف الثوار ينظم حاييم أيضاً، جعل صيدليته مأوى لهم كما وفر الأدوية للحرجى في صفوف المناضلين والثوار، وتخرج أيضاً على فترة ما بعد الاستقلال وما طبعها من ضبابية، بعد تهجير الفرنسيين والأقدام السوداء، استغل البعض الفرصة وتم الاستيلاء على كل ما خلفه الفرنسيون وفرض السيطرة من جديد، تنتهي الرواية بوجع الفقد والفرق، فكان المرض والموت النقطة الفاصلة لصدقة جمعت حلوة الأيام ومرها.

### ثالثاً: المرجعيات التاريخية (سرد الأحداث التاريخية)

الرواية والتاريخ مصطلحان متلازمان يكملان بعضهما البعض، فقد عملت الرواية على تأريخ الأحداث ونقل الوثائق التاريخية والشخصيات، حيث شكلت المرجعية التاريخية "طاقة يتم استثمارها في العمل الروائي نظراً لما تحتزنه من أحداث وتواريخ مهمة، فالتاريخ عبارة عن سجل يحمل في طياته ماضي مليء بالحوادث المختلفة والمتضاربة أحياناً أخرى"<sup>13</sup>، الأمر الذي جعل الروائيين ينكبون على التاريخ لبعثه من جديد، وكشف حقائقه المسكوت عنها وصياغتها في تشكيل أدبي فني ذو أبعاد تاريخية، فهو "ينظر بإحساسه الفني إلى التاريخ على أنه المادة التي يستطيع عبرها تصوير رؤيته للواقع، والتعبير عن تجاربه، وهو بذلك لا يكتب التاريخ، بل يقيم معالم له، ويحاول خلقه من جديد على وفق رؤيته"<sup>14</sup>، فالروائي عندما يستحضر المادة

التاريخية ليس الهدف منها سرد الأحداث فحسب، وإنما لبعث الماضي من جديد ومحاورة الحاضر من خلاله. وفي الأتي سنعرض أهم المراحل والمسارات التاريخية التي ألقت الرواية الضوء عليها:

### 1- التمثيل السردي التاريخي للأحداث: (كتابة التاريخ الوطني واستعادة الذاكرة):

أول ما نلتسمه ونحن نطلع على صفحات الرواية هو استرجاع ذاكرة الماضي، التي تحمل في طياتها ذكريات مؤلمة للذات المستعمرة التي تعاني العنف، من طرف المستعمر الذي سلبها هويتها وقيد حريتها، في المقابل نجد صورة الآخر المسلم النبيل الذي يمثل نفسه ولا يمثل الجماعة ككل؛ وهو شخصية (حاييم اليهودي)، واسترجاع الذاكرة الجماعية "يؤدي دورا كبيرا في ضمان الاستمرارية الثقافية التي تمكن جماعة ما من الحفاظ على إرثها الثقافي والمعرفي المشترك، وصيانتها من النسيان والتلاشي والدمار، وهكذا تبدو الذاكرة بمثابة ذخيرة ثقافية حية تستوعب باستمرار القيم الثقافية لجماعة ما بأشكالها التعبيرية والرمزية؛ أي كل ما يميزها عن غيرها، ويبلور موقفها من الوجود"<sup>15</sup>.

من المراحل التاريخية التي وردت في الرواية ما يلي:

### أ- المرحلة الأولى: الجزائر في سنة 1944 وما بعدها

عكست هذه المرحلة الحياة الاجتماعية القاسية التي كان يعيشها الجزائريون إبان الاحتلال في منطقة سعيدة ومعسكر من تمييز عنصري وتهميش للأهالي الذين يطلق عليهم "الأنديجان"، وهو ما يعكس ثنائية الأنا والآخر المتصارعان والمتقضي لأحداث الرواية يجدها مليئة بصور الفوضى والتشرد فالعلاقة بين الأنا والآخر طبعها تسلط الآخر الذي كان الطرف الأقوى في هذا الصراع وهذا ما عبر عنه أرسلان في قوله: "فقد كنت أمام سلطة فرنسية لها الحق علي في معاقبتي بالتوقيف أو الطرد. ثم سألني لماذا؟ ولا شك أن غلالة أكفهرار كانت قد انتشرت على وجه مسيو ويل، وهو ينطق عبارة "هاه، لاراب"<sup>16</sup>، الأنديجان، لاراب صفتان اعتمدها الاستعمار للتقليل من شأن الجزائريين وإذلالهم، لأن فرنسا كانت يعتبر الأهالي أقل شأنًا من الفرنسيين، فاستمت العلاقة بالتمييز العنصري الذي مورس في جميع المجالات، يقول: "لعله هو ذاك الشعور الذي أدخلني كما حاييم في تنافس، كل شيء فيه كان شديدا، مع ثلاثة وعشرين زميلا لنا من الأوروبيين والأقدام السوداء، الذين كانوا في غالبيتهم، خاصة المحظيين منهم بالنظام الخارجي، ينظرون إلينا، أنا وحاييم، نظرة أهل المدينة إلى الريفيين. وكانوا، لاسمينا قد رتبونا بقوة أحكامهم المسبقة، ضمن خانة الأنديجان- تلك نظرة الأقدام السوداء والأوروبيين جميعا لغيرهم من الأهالي"<sup>17</sup>، فالآخر

المستعمر سعى لإثبات وجوده بطرق عديدة كالهيمنة والتعالي على الأهالي الذين يوصفون بالأنديجان. ونتيجة لذلك أصبحت الذات الجزائرية مغيبة ومرغمة على التنازل لسلطة أقوى اعتمدت على الترغيب والتخويف. ومن الأحداث التاريخية التي استرجعها الكاتب مصادرة الأراضي ومنحها للمعمرين مجاناً، كما جاء في نص الرواية كقوله: "مما كنت طالعه في تلك الأرشيفات، أن المعمرين الأوائل الذين استوطنوا منطقة اليعقوبية التي تعتبر سعيدة مركزها، هم الذين أطلقت عليهم صفة العسكر الفلاحين؛ لأنهم كانوا تابعين للجيش الفرنسي، وكانوا مسلحين. وكان أغلبهم من الذين زوجوا يتيمات وفتيات من الملاحي في المتروبول. ثم جيء بهم وتم التنازل لهم عن قطعة أرض. وهم في الأصل ليسوا سوى مجموعات من شذاذ الآفاق والجياع الذين استولوا على أملاك غيرهم"<sup>18</sup>، والمعروف تاريخياً أنه منذ أن وطأت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر عملوا على تهجير مجرمي أوروبا وسجنائها، وهم المعمرين الذين قدموا من جميع الدول الأوروبية إلى الجزائر وتم تجنيدهم، وأغلبهم عبارة عن لصوص ومشردين جيء بهم وتم توزيعهم عبر العديد من مناطق الوطن، ليتمتعوا بكافة الامتيازات والحقوق، فاستولوا على الأراضي والأملاك ونهبوا الخيرات بتفويض من فرنسا.

لقد كان الظلم بشتى وسائله هو المسيطر على الطرف المستضعف (الأهالي)، الذين لا يملكون أدنى الحقوق فحرموا من جميعها، هذه الأوضاع ولدت الانفجار بالنسبة للطلبة الجزائريين، الذين رأوا أن الحل للخروج منها يتمثل في اللجوء إلى المقاومة المسلحة فمن "الظلم التاريخي أن تكون نسبة عدد الأهالي، مقابل مجموع الأوروبيين والأقدام السوداء، تسعين في المائة، لتكون هذه النسبة هي نفسها من الأميين منهم؟" هذه الأوضاع ولدت الانفجار بالنسبة للطلبة الجزائريين الذين يمثلون الأقلية، حين رأوا أن الحل الوحيد للخروج من هذه الأوضاع المزرية هو اللجوء إلى المقاومة المسلحة "إن الما يجب، لإزالة الظلم التاريخي، يتطلب ثورة مسلحة"<sup>19</sup>.

### ب- المرحلة التاريخية الثانية: من 1954 إلى 1962

لم تكن الظروف في هذه المرحلة أفضل من سابقتها بل تعتبر أكثر سوءاً منها، نظراً لممارسات الاستعمار التي زادت حدة بسب رفض الجزائريين للظلم والقوانين الجائرة، ونجد أن الرواية لم تختلف عن الحقيقة التاريخية، فعرضت أهم المحطات التاريخية وكانت تدل عليها مؤشرات من



خلال تفاعل الأحداث والشخصيات، التي لم تبتعد عن الواقع بالرغم من أنها من فعل التخيل، هنا تتداخل المرجعية الواقعية مع المرجعية الروائية المتخيلة.

### 1- مرجعية الثورة:

من المواضيع التي طغت على الساحة الأدبية الجزائرية موضوع الثورة الجزائرية (حرب التحرير)، التي صارت موضوعا متداولاً بكثرة، فلم تحضر في هذه الأعمال "بوصفها رقعة أرجوانية تزين النص الأدبي، ولا كحسر يمكّن الكاتب من العبور إلى اكتساب الشرعية الأدبية، وإنما الارتداد إلى صورة الحرب يمثل مرتكزا شرعيا نقديا، نقيضا لشرعية تاريخية يمثلها الخطاب الرسمي بشكل زائف"<sup>20</sup>، صورت الرواية الأجواء التي سبقت الثورة وكيف كانت ردة فعل فرنسا ومعمريها، يقول: «إني وجدت كثيرا من طلبة الأقدام السوداء والأوروبيين لا يخفون، هم أيضا، توجسهم من شيء خفي؛ ليس فحسب بل بسبب شائعات سرت عن هجومات بالأسلحة والمتفجرات وشبكة الوقوع، ولكن أيضا إلى افتتاحيات الصحافة التابعة لنفوذ كبار الكولون، من أرباب إنتاج الخمر والقمح والحمضيات، الداعية إلى قبضة أمنية أشد على دعاة الاستقلال، وخنق كل حركة لهم في مهدها، مذكرة بجزمة "ديان بيان فو" المذلة في شهر مايو الماضي"<sup>21</sup>، تتواصل سلسلة الأحداث فنجد أيضا الحوارات التي تدور بين أرسلان والطلبة الأوروبيين "وتوالي الأيام، ازدادت شعورا بأي أضحيت محل عناية خاصة من زملاء لي صاروا لا يتحرجون في مواجهتي بأسئلتهم، خلال اللقاءات في الكافيتيريا...، عن رأيي في نتائج سياسة الإدماج وفي الانتخابات؛ وعن وجهة نظري في الشائعات التي تسري حول إنشاء تنظيم سري يعد لعمل مسلح"<sup>22</sup>. والمقصود بالتنظيم السري هو اللجنة الثورية للوحدة والعمل والتي أسست في مارس سنة 1954، والثورة هي رد فعل قوي لإنهاء واقع الظلم والاستبداد، كما أنها إرادة تحرر زمن القمع وتحويل النفي إلى تحدّ، وإن كان الثمن الموت"، جاء في الرواية "ليلة عيد الأموات كانت حمراء بالبنط الأحمر الغليظ، وتحت بالأسود عمليات دامية في مناطق كثيرة من الجهة الشرقية نفذها خارجون عن القانون، وكان يظهر على صدر الجريدة التي نطالعها باستمرار"<sup>23</sup> كما نقل لنا ما جاء في جريدتي الجيرير ببيلكان وإيكو دالجي "...ومهما تكن الوقائع المؤلمة، تلك التي تجري كل يوم مخلفة ضحايا في صفوف قوات الأمن والمدنيين أيضا، فإننا لن نزداد إلا إصرارا على أن نتساهل مع المخربين ولا الداعمين لهم

لحماية الجمهورية وبسط سيادتها، هذا يعني أنه صار ضرورة ملحة وعاجلة حظر الحزب الشيوعي الجزائري، الذي قرر الانتقال إلى العمل المسلح إلى جانب إرهابي جبهة التحرير<sup>24</sup>.

#### ب- الاستقلال واستعادة الحرية المسلووية:

ويتوالي الأحداث تستمر الرواية في نقل صور وأجواء الثورة، ورد فعل فرنسا على الثوار الذين تصفهم بالخارجين عن القانون والمجرمين، فاستعادة الكاتب لفترة بعيدة من تاريخ بلاده يؤكد على ارتباطه الذاتي بالذاكرة، التي تمثل جزءا مهما في تاريخ الإنسانية. وأجمل ما أسفرت عنه هذه المواجهات هو استرجاع الحرية تدريجيا، ورغم الفقد والوجع والانكسار نقلت لنا الرواية صور الابتهاج والنصر بإعلان الاستقلال، حين تابعت جموع الجزائريين "نشرات الأخبار المفصلة عن الإعلان الرسمي للاستقلال في أكثر من محطة"<sup>25</sup>، وحناجرها تلهج بـ"هتافات" تحيا الجزائر ترتفع من وسطهم، فتموج إلى أبعد نقطة في الشوارع الخمسة. ثم تحبو. ثم تتلوها أخرى في إيقاع كوريكرافي مثير وخالب، تتخلله زغاريد قوية وحادة كأنها من حناجر نحاسية<sup>26</sup>، هكذا كانت أجواء الاحتفال بالاستقلال والحرية بعد قرن ونصف من الاستبداد والظلم.

إن استرجاع الكاتب لهذه المحطات التاريخية الهامة، وإعادة بعثها من جديد لم يكن بداعي التوظيف التاريخي فحسب، وإنما يهدف من خلال استحضارها إلى التذكير والتعريف بهذه الفترة التاريخية، التي عرفت فيها الدولة الجزائرية نتيجة الغطرسة الفرنسية، تحولات عديدة في جوانب مختلفة سياسية واجتماعية وثقافية.

#### رابعا: المرجعية الاجتماعية: (صورة الأنا و الآخر في الرواية)

الرواية من أكثر الفنون احتواءً للعلاقة الجدلية بين الأنا والآخر، كما نجدتها أولت اهتماما كبيرا بالأنا الذي كان الطرف الأضعف في كل مرة، وفتحت أمامه المجال ليعبر عن أفكاره، آماله وحييائه، وبما أنها تعد من أقدر الفنون على تقديم تفاصيل الحياة بكل حقائقها وأوهامها، مما يتيح لنا دراسة إشكالية العلاقة بين "الأنا" و "الآخر" فيها؛ إذ تستطيع أن تفتح أمام المتلقي طريق فهم الذات والآخر معا<sup>27</sup> لكن الأمر يختلف في رواية "أنا وحايم"، بالرغم من وجود "الآخر الفرنسي" المحتل والمغتصب، يقابله الطرف الآخر النبيل والمسالمة، اختلافه في العقيدة والجذر لم يمنعه من العيش المشترك تحت راية الإنسانية. "حايم اليهودي وعائلته" نموذج للعائلات اليهودية

الجزائرية، التي لم تغرها امتيازات فرنسا والتجنيس لضمان الحرية والحياة الكريمة في أجواء الحرب، بل فضلوا الانحياز لأصلهم والمحافظة على انتمائهم وعاداتهم.

إنّ البعد الرمزي لهذه الرواية سمح بخلق استراتيجية كتابة جديدة تشكلت مادتها من مواضيع لها صدى واسع في الفكر العربي والغربي الأنا والآخر الهوية والتاريخ الوطني، حيث جعل من شخصياته ونمط تفكيرها صورة تعكس الحياة في تلك الفترة. انطلاقا من هذا سنقدم قراءة للنشائية:

### 1- صورة الأنا (الذات و ملامح تشكل الهوية الجزائرية):

عرضت الرواية العديد من العادات وصور الحياة في المجتمع الجزائري التي لم تغير الحرب منها شيئا، فعائلة أرسلان مثلها كأبي عائلة جزائرية كانت متمسكة بعاداتها وقيمها، فمن خلالها تحس بطعم الهوية الوطنية ما " أضفى على الحكيم نكهة قريبة من الحميمية، من خلال تلك الأوصاف الدقيقة والسرد المناسبة"<sup>28</sup>، فتحدث لنا عن الأطباق التقليدية واللباس الجزائري الأصيل والاحتفال بالمناسبات الدينية، ورد ذلك في قوله: "ولكنني كنت أيضا أخبرت حاييم عن حفل نهاية موسم الحصاد. وقلت له إني تمنيت لو أنه كان حاضرا معي ليشاهد فاتنازيا الخيالة ويأكل مشوينا وسفة الكسكس بالعسل"<sup>29</sup>، هذه العادات التي كانت تتميز بها الذات الجزائرية جعلتها لا تستسلم لواقعها الذي فرض عليها، وإنما كانت نقطة القوة الدافعة للتمسك بالوطن والهوية، يقول: "أخرجت مواعين الفخار والملاعق الفضية من خزانة الأواني في المطبخ، وكانت لا تخرجها إلا للخاصة من الضيوف أو في مناسبة مهمة تجتمع العائلة خلالها. وحضرت لي، للفتور والغذاء والعشوية والعشاء، مأكولاتي الحلوة اللذيذة الحارة والدسمة، من بغيرير ومسمن ومبسس... "<sup>30</sup>، وكان للباس أيضا دور، يقول: " فلا تتخللهن إلا نادرا امرأة من الأهالي المسلمين ترتدي الملحفة أو الحايك، لباسها التقليدي في الخروج. أو رجل في لباسه التقليدي، هو أيضا، بعباءة وكنبوش أو شاشية على رأسه وآخر بطربوش غالبا "<sup>31</sup> فالذات هنا وصلت إلى ذورة النضج والوعي بالمكان(الوطن) والهوية. انطلاقا من هذه الأفكار المحورية تستثمر الرواية مقومات الهوية المرتبطة بالواقع المعيش والمستوى الاجتماعي في تلك الفترة وحضورها يدل على التمسك بالمكونات الأساسية للثقافة الجزائرية.

### 2- صورة اليهود في الرواية

أثار الحديث عن اليهود في الرواية حيزا واسعا من الجدال، وفجر العديد من الأسئلة عن الأسباب الحقيقية التي أدت بالحبيب السائح، أن يجعل من الشخص اليهودي إنسانا مميزا، شارك في الثورة وهو الذي عرف تاريخيا بخيائته وموالاته للاستعمار، لكن المتصفح للرواية يجده يتحدث عن العلاقات الإنسانية التي يسودها التسامح الديني رغم الاختلاف، لأن هذا هو الأصل في الحياة أن تبني العلاقات على التفاهم والتحاور لا على العنف والتمييز الذي دمر حياة البشر. يقول: "صور نصفية مكبرة في براويز: الأولى لموشي والد حايم بعمامة من الجوخ. والثانية لوالدته زهيرة سماح. كم وجدتها في نظرتها الطيبة المسالمة وحلي أذنيها ورقبتها وشدة عصابة رأسها تشبه جدتي!"<sup>32</sup>، وعائلة حايم كانت من العائلات اليهودية المحافظة والمندمجة في الجزائريين إلى حد شعورها بالوطنية، وهذا ما عرض حايم للتمييز العنصري وتم اعتباره من الأنديجان المتخلفين، لأنه لم يغير اسمه إلى اسم أوروبي، "فدليلهم بالنسبة لحايم بن ميمون أنه لا يزال يستعمل اسما كان يجب على عائلته أن تغيره باسم أوروبي، كما فعلت ذلك عائلات من اليهود المستفيدين من قانون التجنيس"<sup>33</sup>، و"عائلة بن ميمون التي نزحت من الأغواط بعد احتلالها في بداية المنتصف الثاني من القرن الماضي، كما حدثني عنها حايم ذات مرة، كان لسان أفرادها مستقيما وسليما في نطقهم الأصوات العربية، مثلهم مثل بقية اليهود الأهالي في جهات ومدن أخرى"<sup>34</sup>، فمن خلال هذا المقطع تجسدت في الرواية صورة اليهودي التي مثلها حايم وعائلته، وما أراد لها الكاتب أن تتصف به من الانفتاح والتحاور، تتكلم اللغة العربية وتشارك مع العرب في بعض العادات والتقاليد الخاصة بالأكل والزواج و"عوائد الأعراس عند عائلات اليهود والمسلمين وتشابهها، كما في مراسم موكب العروس يوم زفها إلى بيت العريس، مشيا أو في هودج أو على ظهر دابة! وألبسة الرجال، في تلك الأعراس تصف وحدها، لهذا وذاك منزلته الاجتماعية..."<sup>35</sup>، و"أجبت أن عائلتي مثل عائلة حايم لا تأكلان من تلك اللحوم، ولكن لماذا كنت سأشعر بالغبث لو أن المدير طلب مني أن أخصص له بعض تلك اللحوم بأسمائها، كما كنت أراها أحيانا في دكاكين الجزائر غير المسلمين واليهود مسلوخة معلقة من قوامها في معاقف أو مقطعة على طاولة العرض"<sup>36</sup>، فكانت هذه العائلة اليهودية تشارك مع المسلمين في عادات كثيرة، رفضت الاستعمار وجرائمه.

خامسا: المرجعية الدينية:

انطلاقاً من أحداث الرواية وموضوعها نجد أن الكاتب وظف مؤشرات، استند فيها على المبادئ والأسس التي توضح الخصوصية الدينية للإسلام، والديانة اليهودية التي حافظت عليها عائلة حايم، "لا أحد يختلف أن الدين السماوي أو الدين الوضعي لديه مادة غنية وعميقة معرفياً وفلسفياً وثقافياً، لتكون مرجعية من المرجعيات التي قد يتركز عليها الكتاب، فالدين هو أحد منابع الثقافة، والمرجعية التي يلجأ إليها بعض الكتاب حينما يفكرون في كتابة نص ما، تبعاً لمجموعة من القيم والمبادئ التي يؤمن بها هذا الكاتب أو ذلك"<sup>37</sup>، وقد نصت الأديان على ضرورة العيش المشترك والابتعاد عن التعصب الديني من أجل ضمان السلام والتسامح. إذ أن الدين يشكل الجزء الأكبر من هوية وثقافة المجتمعات، والحبيب السائح طرح فكرة جوهرية مفادها أن الاختلاف لا يولد العداوة والبغضاء لأن الإنسانية هي الأشمل وطعم الحياة الهادئة تقوم على تقبل الآخر والتعايش معه، والاختلاف في الدين والمعتقدات ليس سبباً للانغلاق على الآخر، بل يجب الانفتاح والتسامح ما دمنا نشترك في الخلق، يبقى المعتقد حرية شخصية. من المؤشرات الدينية نذكر: "لا أعتقد أن في دينك كما في ديني عريا بهذا الذي كان عليه تمثال مدرستنا! تبسم ثم كتب بدوره على كراسه وأداره، بالحذر نفسه، إلي فقرأت "لذلك يصفوننا بأهل الحرام! العري حرام. وأكل اللحم من غير ذبح حرام!"<sup>38</sup>، الواضح من هذا أن يهود الجزائر ومسلميها قد يشاركون في بعض المبادئ في أكل اللحم وتجنب العري. وقال أيضاً "لا أنسى أيضاً مناسبة المولد النبوي والديك المعروف بريش نوار الفول الذي ذبحه لنا موشي أبو حايم... استحوذ على وجه جدتي، استحوزا لم أعرفه من قبل وهي تقص علي، وأنا طفل نشأة النبي محمد، فرحت حينها أتخيل له صوراً متسائلاً أكانت تشبه صور الأطفال الصغار في سنه؟"<sup>39</sup>، الاحتفال بالمناسبات الدينية من العادات التي تميز الجزائريين منذ القدم، وحتى في أصعب أيامهم لم يتخلوا عنها، يضيف "ووعدتني بطاجين رفاق آخر في عاشوراء القادمة أو المولد النبوي، إن صادف ذلك عودتي لعطلة. وقبل أن أقوم إلى غرفتي، حدثتها عن احتفاء أهل حي القصبة بالمولد النبوي؛ بإيقاد الشموع وربط الحناء وإخراج الصدقات"<sup>40</sup>، هكذا كانت ولا زالت صور الاحتفال بالمناسبات الدينية التي توارثتها الأجيال.

أما عن الديانة اليهودية جاء "قرأت اسم حايم بنميمون تحت النجمة السداسية محفوراً بالحروف العبرية"<sup>41</sup>، "ولو هلة توهمت حايم بوجهه الحي الذي رأيته عليه آخر مرة في وهران، ممدداً في لحد

لم يزحف تحت التراب بجسده إلى القدس! فقد كان ذكر لي مرة أن كثيرا منهم في الشتات يؤمن بذلك. وعبر لي أن روح الإنسان تخلد في سماء التربة التي نبت فيها"<sup>42</sup>، تعد هذه من المعتقدات اليهودية التي تقول بأن الإنسان لما يفارق الحياة تخلد روحه في سماء التربة التي نشأ فيها، بالإضافة إلى دراية الكاتب بالمرجعية الدينية الإسلامية يتضح أيضا أنه على اطلاع ومعرفة واسعة بالديانة اليهودية وخصائصهم.

#### خاتمة:

توصف الرواية بأنها من الأجناس الأدبية التي تفتح فضاءً رحبا للروائي، ليستقط عليه كل مدركاته ومعارفه التي تكتنزها ذاكرته، فيطرح القضايا المسكوت عنها والصراعات التي تواجه المجتمع، وفقا لقلب في يخضع للجمالية الشكلية واللغوية، ومن خلال قراءتنا لرواية أنا وحاييم وتحليلها وفقا للمرجعيات الثقافية وقفنا على جملة من النقاط أهمها:

- أن عودة الكاتب إلى الماضي واستعادة الذاكرة التاريخية كان بدافع بعثه من جديد وإسقاطه على الحاضر.

- تظهت المرجعيات الثقافية في رواية أنا وحاييم من خلال مجموعة من المؤشرات والمعطيات أبرزها:

السرد التاريخي للأحداث وتسليط الضوء على فترات مهمة زمن الاحتلال الفرنسي للجزائر، خصوصية المكان الذي يمثل الانتماء والهوية بالنسبة للجزائريين الذين تمسكوا به وبعاداتهم وتقاليدهم.

- تتصارع الذات الجزائرية مع الآخر الفرنسي من أجل التأكيد على هويتها في ظل التحولات السياسية والاجتماعية والأيدولوجية التي فرضها المستعمر..

- أكدت الرواية على وجود الوعي الواسع بالتاريخ واحتوائه، فكان توظيف المرجعيات الثقافية بشكل واسع، وبمستوى راق جدا وبطريقة محكمة مميزة، أبانت على قدرته في تحقيق الكثافة المرجعية التي يفرضها السرد مما ساهم في بلورة مجموعة من التصورات المرتبطة بالماضي والمجتمع.

- الاختلاف في الأديان والعرق ليس سببا لنبذ الآخر، قدمت لنا الرواية رسالة نبيلة عن التعايش السلمي والتسامح الديني.

- تناول الروائي الثقافة من جميع مظاهرها التاريخية والاجتماعية والدينية، واستطاع أن يلج في أعماق المجتمع، دون أن ينزاح عن التقنيات الفنية والجمالية للرواية. -وهكذا غدت هذه المرجعيات نقاط تواصل إنساني تتقبلها العقول كأشياء جزء من هوية لا يمكن نسيانها، لأن المرجعيات لا يقوم الفكر بالتساؤل عن مدى صحتها وواقعيتها، إنما يشحنها الاستحضار بطاقة إيجابية كونها فكرة سامية في روحها.

- المرجعيات الثقافية تحولت إلى بُعد جمالي يقصد كرموز دلالية إيجابية للتواصل والإعجاب.

### هوامش

<sup>1</sup> تدوروف وآخرون: المرجع والدلالة في الفكر اللساني، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2000، ص09.

<sup>2</sup> رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي، دار الحكمة، الجزائر، ط1، 2000، ص152، ص153.

<sup>3</sup> اليامين بن تومي: مرجعيات القراءة والتأويل عند نصر حامد أبو زيد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011، ص145.

<sup>4</sup> عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي، ص389.

<sup>5</sup> عبد الرحمن التمار: مرجعيات بناء النص الروائي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2013، ص52.

<sup>6</sup> فهد حسين: مرجعيات ثقافية في الرواية الخليجية، بيت الغشام، سلطنة عمان، ط1

<sup>7</sup> شهلا العجيلي: الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2011، ص61.

<sup>8</sup> عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2003، ص85.

<sup>9</sup> دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية تر منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007، ص17.

<sup>10</sup> دنيس كوش، ص31.

<sup>11</sup> فهد حسين: المثقف وأفق الانعتاق، تموز ديموزي، سوريا، ط1، 2019، ص81.

<sup>12</sup> أحمد بوحسن: الروائي و التاريخي في رواية كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج، ضمن كتاب الهوية و التخييل في الرواية الجزائرية -قراءات مغربية، رابطة أهل القلم، الجزائر، ط1، 2008، ص09.

<sup>13</sup> محمد القاضي: الرواية والتاريخ (دراسات في تخييل المرجعي)، دار المعرفة للنشر، تونس، ط1، 2008، ص65.

<sup>14</sup> حسن سالم هندي إسماعيل: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث (دراسة في البنية السردية)، دار حامد للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2014، ص18.

- <sup>15</sup> محمد الداوي : صورة الأنا و الآخر في السرد ، رؤية للنشر و التوزيع ، القاهرة ، ط1، 2013، ص203.
- <sup>16</sup> الحبيب السايح: رواية أنا وحاييم، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018، ص22
- <sup>17</sup> الرواية، ص24.
- <sup>18</sup> الرواية، ص103.
- <sup>19</sup> الرواية، ص86.
- <sup>20</sup> عامر مخلوف: الرواية والتحويلات في الجزائر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2000، ص9.
- <sup>21</sup> الرواية، ص114.115.
- <sup>22</sup> الرواية، ص116.
- <sup>23</sup> الرواية، ص124.
- <sup>24</sup> الرواية، ص130.
- <sup>25</sup> الرواية، ص217.
- <sup>26</sup> الرواية، ص219.
- <sup>27</sup> ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر، عالم المعرفة، الكويت، 2013، ص14.
- <sup>28</sup> شعيب حليفي: ثقافة النص الروائي، المدارس للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2016، ص162.
- <sup>29</sup> الرواية، ص42.
- <sup>30</sup> الرواية، ص51.
- <sup>31</sup> الرواية، ص157، 158.
- <sup>32</sup> الرواية، ص13.
- <sup>33</sup> الرواية، ص24.
- <sup>34</sup> الرواية، ص29، 30.
- <sup>35</sup> الرواية، ص40.
- <sup>36</sup> الرواية، ص22، 23.
- <sup>37</sup> فهد حسين: مرجعيات ثقافية في الرواية الخليجية، ص112.
- <sup>38</sup> الرواية، ص33، 34.
- <sup>39</sup> الرواية، ص108، 109.
- <sup>40</sup> الرواية، ص109.
- <sup>41</sup> الرواية، ص330.
- <sup>42</sup> الرواية، ص331.